مجلة دراسات في سيكولوجية الانحراف
مجلة علمية دولية نصف سنوية ISSN :2602- 554X EISSN :2773-2568
المجلد : 07 العدد 03 السنة : 2022 ص- ص : 501- 514

أزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية الدروب الوعرة لمولود فرعون أنموذجا

The identity crisis in the Algerian novel written in French, the rugged paths of Mouloud Pharaoh as a model

إبراهيم الخليل زياني*
جامعة يحيى فارس المدية - الجزائر
Khalilziani1995@gmail.com

محمد رغميت
جامعة يحيى فارس المدية -الجزائر
mhamedreghmit@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/09/28 تاريخ القبول : 2022/10/28

الملخص:

يعتبر سؤال الهوية أكثر الأسئلة إلحاحا في الفكر العربي الحديث ،وهو سؤال أزمة ولدت قلقا عظيما ،وبدوره فإن الخطاب الروائي الجزائري لم يغفل عن الأمر ووضع أسئلة الهوية مركز ثقل في مشروعه الروائي وسعى للإجابة عنها ،ولعل هذا الإهتمام مرده أسباب (تاريخية وثقافية واجتماعية) أبرزها العلاقة مع الآخر (المستعمر والمستعمَر), بالإضافة لإحساس الأنا بضياع هويته بفعل ممارسات الغير، وعليه تهدف هذه الدراسة المنمذجة برواية الكاتب الجزائري مولود فرعون "الدروب الوعرة" إلى رصد العلاقة بين الأنا والآخر وما يعتري هذه العلاقة من إئتلاف واختلاف وانتقالات بين الصراع والعنصرية والحرب من جهة وبين محاولة التعايش من جهة أخرى كما تحاول الدراسة الإجابة على تساؤلات أبرزها : كيف ترسم رواية الدروب الوعرة الاخر المختلف؟ وعلاقة الأنا بالآخر؟ وسبب الصراع الديني والإيديولوجي؟

الكلمات المفتاح: الأزمة؛ الهوية؛ الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية؛ مولود فرعون.

Abstract:

Identity is considered as the most insistently question in modern Arab thought, and it provoked a great anxiety. Indeed, he novelist Algerian discourse did not neglect the identity issue and attempted to answer it. This given attention is possibly due to reasons (historical, cultural, and sociable), mostly, the relationship with the other (the colonizer and the colonized). In addition to the ego's feeling of losing its identity because of the practices of the others. Accordingly, this study aims at observing the relationship between the ego and the other; the coalition, difference and transitions between conflict, racism and war, and the attempt to coexist on the other hand. Also, the study attempts to answer questions, most notably: How does the rugged paths novel depict the different one? And the relationship of the ego to the other? The reason of the religious and ideological conflict?

Key words: crisis; identity; the Algerian novel written in French; Mouloud Pharaoh.

*المؤلف المرسل

مقدمة:

الرواية هي طريقة خاصة ومتميزة عن سائر الفنون، لأنها فن أنجبته شروط موضوعية وأخرى ذاتية ليلبي حاجة ملحة لم تتمكن الفنون السابقة ولم تقدر على أدائها ذلك لما للرواية من قدرة على استنطاق الواقع بشكل تخييلي فني وتساير كل التغيرات التي تطرأ على أرض الواقع ،بالموازاة مع ذلك كانت الحركة الأدبية في الجزائر فترة الإستعمار الفرنسي تسعى لأن تواكب التطورات السياسية والإجتماعية التي يمر بها الشعب الجزائري في ظل الممارسات القمعية والهمجية التي انتهجتها فرنسا، وأبرز هاته الممارسات سياسة التجهيل وفرض الهيمنة الثقافية والسعي إلى محو مكونات الهوية من لغة ودين وثقافة محلية فكان هذا الجو المشحون عدائية من الاخر سببا في أن يدفع الروائيين الجزائريين أن ينبروا لدفع مخططات المستعمر خوفا من أي ينفرط عقد المجتمع الجزائري، لذا كان منطقيا أن يكون في مقدمة مواضيع رواياتهم مسألة الهوية وعلاقتها بالأنا والآخر، ونحن إذ تطرقنا إلى هذا الموضوع فإننا نسعى إلى البحث عن تجليات الهوية في رواية الدروب الوعرة للكاتب الجزائري مولود فرعون وما تحمله هذه الرواية من أبعاد إيديولوجية مختلفة، وقد وقع أختيارنا على هذه الرواية لخصوصية معينة أثارت فضولنا، سعينا فيها لإبراز مدى تمسك الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية بوطنيتهم، بعد أن شكك الكثيرون في قومية هذا الأدب وكاتبيه، وكذلك لإبراز موقف مولود فرعون من الآخر المختلف جنسا وعرقا وفهم العلاقة التي تحكم الطرفين الأنا والآخر في روايته أن باعتبار أن الهوية لا يمكن أن تنجلي إلا بوجود الآخر المختلف جنسا وعرقا ولغة ودينا، على هذا فقد تحرينا كل تفاصيل الرواية مركزين الجهد على توضيح كل ما من شأنه أن يكون له دلالة عن الهوية أوالأنا والآخر بين ثنايا العمل المدروس، ولأن موضوع الدراسة بوصفه طرحا هوياتيا محضا يمس النسيج الإجتماعي المحلي في جزئية ثقافية ألا وهي الهوية فقد وجدنا أن منهج التحليل الإجتماعي بالمزواجة مع النقد الثقافي هما الأقرب حيث يخدمان بحثنا ويساعداننا في الكشف عن هذه البنى والأبعاد الروائية والشخصيات وعلاقتها بالأوضاع الإجتماعية والسياسية للشعب الجزائري في تلك الفترة، مستهدفين بذلك الإجابة على تساؤلات أبرزها: كيف تجلت الهوية في رواية الدروب الوعرة ؟.

-كيف صورت الرواية الذات المتأزمة وما موقفها من الآخر؟

هل ساهم الجدل بين الأنا والآخر في رواية الدروب الوعرة في التشكيل والحفاظ على الهوية المحلية أم طمسها؟

1. **مفاهيم أساسية:**

1.1. الهوية بين اللغة والإصطلاح:

يعتبر مفهوم الهوية من أكثر المفاهيم زئبقية في شتى العلوم كالعلوم الإنسانية والإجتماعية ويعود إلى عدة مجالات من التفكير الثقافي والحضاري ويرتبط بالتنوع والإختلاف في صيغه،وعلى هذااختلف الباحثون والدارسون في شتى المجالات (الأدبية والفلسفية والإجتماعية) في إعطاء تعريف جامع مانع للهوية خاصة فيما يتعلق بضبط المصطلح،هذا كون الهوية مرتبطة بالذات الإنسانية سواء في صيغتها الفردية أو الجماعية، ومع التطور الحضاري الحاصل اتسعت رقعة الخلاف وأصبحت الهوية هاجسا، مما أشعل لهيب الإنتماء والأصل، فأصبحت مناقشة فكرة الهوية أمرا ضروريا لمسايرة الحضارة.

1.1.1 لغة:

لا نكاد نجد في أمهات المعاجم العربية تعريفا للهوية بمعناها الحديث، فمنتهى تعريفهم للهوية متعلق بإشتقاقها من الفعل الثلاثي "هوى" "بالفتح "يهوي" "هويا" وهويان،وانهوى سقط من فوق إلى أسفل، وأهواه هو قال:إذ ألقيته من فوق هوية تصغير هوة وقيل :"الهوية بئر بعيدة المهواة، وقيل الهوة الحفرة بعيدة القعر"(ابن منظور، 1990، صفحة 4727/4729)أما الشريف الجرجاني فيعرف الهوية بقوله :"الهوية هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق، والهوية السارية في جميع الموجودات ما إذا أخذت حقيقة الوجود لا بشرط لاشيء" (الشريف، 1998، الصفحات 137-138).

ويورد فهد الذويخ تعريف الهوية بالقول:"إنها الصفة الثابتة في الذات التي لا تتبدل ولا تتأثر، والهوية ما يبدو لنا من الموجودات في الأرض للتعبير عن الحقيقة المطلقة الراسخة في الذات الإنسانية، كما تأخذ معنى جوهر الشيء وحقيقته وبالتالي فإن هوية الشيء هي ثوابته التي تتغير وتتجدد، تفصح عن ذاتها ما بقيت الذات على قيد الحياة" (فهد، 2009، صفحة 20).

2.1.1 إصطلاحا:

يعتبر مفهوم الهوية من أكثر المفاهيم زئبقية في شتى العلوم كالعلوم الإنسانية والإجتماعية ويعود إلى عدة مجالات من التفكير الثقافي والحضاري ويرتبط بالتنوع والإختلاف في صيغه،وعلى هذااختلف الباحثون والدارسون في شتى المجالات (الأدبية والفلسفية والإجتماعية) في إعطاء تعريف جامع مانع للهوية خاصة فيما يتعلق بضبط المصطلح،هذا كون الهوية مرتبطة بالذات الإنساية سواء في صيغتها

الفردية أو الجماعية، ومع التطور الحضاري الحاصل اتسعت رقعة الخلاف وأصبحت الهوية هاجسا مما أشعل لهيب الإنتماء والأصل، فأصبحت مناقشة فكرة الهوية أمرا ضروريا لمسايرة الحضارة.

جاء في كتاب خطاب الحداثة في الأدب أن الهوية "عملية تمييز الفرد لنفسه وتحديد حالته الشخصية "(شحيد و قصاب، 2005، صفحة 429) وتساعد هذه العملية بما يميزها من سمات (إسم، جنسية، سن، حالة، مهنة....) الفرد في تسهيل معاملاته المختلفة مع الجهات التي تطالب بإثبات شخصيته.. ومبدأ الهوية المقصود به أن الموجود هو ذاته أو هو ما هو فلا نخلط بين الأمور أو بين الشيء وما عداه وألا نضيف للشيء ما ليس له. ومفهوم الهوية كما يقول هنتنغتون "لا يستغنى عنه، وفي الوقت نفسه غير واضح، إنه متعدد الأوجه، تعريفه صعب، ويراوغ العديد من طرق القياس العادية" (صموئيل، 2005، صفحة 37).

ونواجه عند تعريفنا للهوية مشاكل في ضبط المصطلح وذلك راجع إلى عدة أسباب "فعلى الرغم من البساطة الظاهرية التي يتبدى فيها هذا المفهوم فإنه وعلى خلاف ذلك "يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشكلة، وذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته" (إليكس، 1993، صفحة 7)، كما يمكن للمرء أن ينظر للهوية "على أنها على أنها مجموع سماته المميزة والدائمة التي تميزه بوصفه مخلوقا لا تخطئه العين، والهوية هي ما يمكن للإنسان أن يصف به الآخرين ...إلا أن الهوية هي أيضا ما أصف فيه نفسي عندما أتأمل ذاتي بصورة مكثفة وأشكل صورة ذاتي " (إبراهيم، 2005، صفحة 317).

فالهوية هي الحقيقة المطلقة أو للشخص المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات أي خلوها من التناقضات والتشتت.

2.1 الرواية الإجتماعية:

شكلت الرواية الإجتماعية الحاضن والمتنفس لألام الشعوب وقضاياه فعملت على حل مختلف المشاكل للوجود الإجتماعي وتم دلك في صورة فنية صادقة فالكاتب الروائي يسعى للتنسيق بين صياغة أفكاره وربطها بواقعه الإجتماعي يقول إبراهيم عباس: فالكاتب حين يرسم واقعا اجتماعيا لا ينجح في رسمه إلا إذا امتلك الوعي الأدبي الملائم، أي يتعرف على المستويات الأدبية المحايثة للواقع الإجتماعي" (سعدي، 2005، صفحة 7).

وعليه فإنه على الكاتب أن يتمثل من الواقع الإجتماعي لأمته وأن يبذل الوسع في تقديم عمل فني يرقى لأن يكون مؤثرا فيمن يقرأه لأن الرواية الإجتماعية هي ترجمة للواقع المعاش.

1.2.1 مميزات الرواية الإجتماعية:

تمتاز الرواية الإجتماعية وتفرق عن غيرها من الروايات في نقاط عدة أهمها: أنها ترصد قضايا الإنسان وهمومه وأفراحه وهي بذلك تعود للمجتمع كموضوع أساسي وتستعمل في هذا التصوير لغة بسيطة قريبة من المجتمع ملامسة للواقع متبنية الواقعية كمنهج أساسي لا غنى عنه.

2. الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

1.2 محطات الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية:

مثلت الرواية فنا وجنسا دخيلا على الثقافة العربية عموما والجزائرية خصوصا نظرا لتسيد الشعر والنثر الفنى المشهد الأدبي، وبالموازاة مع ذلك كان الجو الإجتماعي والسياسي مهيأ للرواية كي تأخذ دورا ومكانة مما أتاح الفرصة للأدباء الجزائريين أن يعبروا على واقع وحالة مجتمعهم المزرية، فكان الفقر والظلم في مقدمة هذه المواضيع وكان التقاء العنصرين العنصر العربي والعنصر المحلي(الثقافة واللهجات المحلية) في صورة شديدة التعقيد والثراء، تولدت عنها صورة الأدب الجزائري ، الذي تعددت منابعه وتباينت أصوله ومشاربه، لكنها تصب جميعها في محيط أشمل، يتسع لكل الروافد, محيط الثورة الجزائرية، التي انصهرت فيها كل التيارات الفكرية واللغوية، وتخضبت فيها كل الكفوف الجزائرية بالدماء، مثلما تخضبت بالحناء في عرس الإستقلال ونيل الحرية، ولعل مذابح 8 ماي 1945 كانت نقطة التحول في تفكير الأدباء إذ اتجهوا إلى التعمق في المسائل السياسية وممارسة كفاح القلم.

وبما أننا في صدد الحديث عن محطات الرواية فوجب التنبيه إلى الأولية التاريخية بعض الروايات، حيث نجد حاج حمو وروايته "زهرة زوجة عامل المنجم " سنة 1926،"وبعد ذلك ظهرت روايات أخرى ورواءيون أخرون أمثال عيسى زاهر، وجميلة دباش..." (عايدة، 1982، صفحة 60).

وفي 1926 كتب سليمان بن إبراهيم بالاشتراك مع إتيان دينيه رواية بعنوان «راقصة أولاد نائل» وكذلك كتب عبد القادر فكري بالإشتراك مع روبير راندو حواراً قصصياً يتميز بطابعه السياسي بعنوان «رفاق الحديقة» سنة 1933. وفي سنة 1936 كتب محمد ولد الشيخ رواية بعنوان «مريم وسط النخيل».

وفي عام 1947 أصدرت الجزائرية "مارجيت طاووس عمروش" روايتها "الزنبقة" (عايدة، 1982، صفحة 60)شكل سيرة ذاتية تحكي فيه يومياتها في مساكن الطلبة بباريس.

أما الرواية الناضجة المستوفية للشروط الفنية فكانت مع "مولود فرعون" وروايته المعنونة بابن الفقيرسنة 1950 بالإضافة لرواية عبد المجيد الشافعي "الطالب المنكوب" (عايدة، 1982، صفحة 61).

على هذا يمكننا تلخيص المراحل التاريخية للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية إلى ثلاث مراحل:

1.1.2 المرحلة الاولى:

تمتد هذه الفترة كما يرى عبد الكريم الخطيبي في كتابه الرواية في المغرب العربي" من سنة 1945 إلى غاية 1953م" (واسيني، 1986، صفحة 75).

وسادت في هذه المرحلة التصوير البسيط للواقع ولم تحاول الغوص في أعماق الواقع المعاش ذلك نظرا لإفتقادها مقومات الرواية الناضجة ولكن إذا استثنينا بعض الروايات "التي اتجهت إلى البحث عن الجوهر في العالم الذي تصوره وتاركة في بحثها كل ما هو سطحي ولا يسهم في كشف الأبعاد الحقيقية لهذا العمل الإبداعي أو ذلك (واسيني، 1979، صفحة 24).

2.1.2 **المرحلة الثانية:**

وتحدد هذه الحقبة تاريخيا بين 1954 و1958، ظهرت فيها أعمال أكثر واقعية وأكثر نضجا "متجاوزة بذلك النقد المجرد" فقد دخل الكاتب أجيج الثورة محاولا البحث عن أسلحة أكثر فعالية وأساليب أكثر بساطة في محاولة لإيصالها إلى الجمهور مساهمة منه في تحريكه نحو العمل الثوري الفعال، قدمت هذه الفترة أعمالا فنية جادة كانت بمثابة لوحة عظيمة (واسيني، 1986، صفحة 76).

2.1.1 المرحلة الثالثة:

وهي الفترة الممتدة من 1958 -1962 فقد تبلور فيها أدب الكفاح وأخذ أبعادا أكثر شمولية واتساعا، فالطابع العام لهذا الأدب يؤكد أن الروائيين اصطدموا بعنف مع الإستعمار وواجهوه واصطفوا مع الشعب الجزائري في خندق واحد لدرجة أن هذا الموقف دفع ثمنه بعض الكتاب حياتهم وعلى رأس هؤلاء مولود فرعون.

2.2 إشكالية الإنتماء والتجنيس:

شكلت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ظاهرة لغوية متميزة وفريدة وقد أثارت خلافا لازال مستمرا إلى اليوم،خصوصا مع استمرار ظاهرة الكتابة باللغة الفرنسية،والتي عادت إلى الواجهة من جديد قبل وأثناء العشرية السوداء وهذا ما طرح كثيرا من التساؤلات من النقاد حول دواعي استمرارها رغم انقضاء المرحلة الكولونيالية والتي أجبرت الكتاب وقتها على الكتابة بالفرنسية مجبرين، وبما أن هذه الظاهرة أضحت واقعا معاشا فإنها تستلزم الدراسة والتركيز عليها بحثا في طياتها عن عنصر مهم لا ينفك عنها ألا وهو الهوية ولأنه من الصعب الحديث عن هذه الآداب دون التصادم بهذه الإشكالية

كما تزداد هذه الإشكالية تعقيدا حسب عمر بوشموخة حين يتعلق الأمر "بشرعية تمثيل النص الأدبي للهوية الثقافية للجزائر في بلد تتنازعه لغتان :العربية والفرنسية" (عمر، 2011).

إثر هذا تواردت أسئلة كثيرة شكلت حيرة لدى عموم الباحثين ومن بين هذه الأسئلة:

- إلى أي مدى يمكن تحديد الهوية الجزائرية في الأدب الفرنكوفوني؟
- في أي كفة يمكن إدراج هوية النص الأدبي الجزائري ذي اللسان الفرنسي؟
- ما مدى فاعلية الكتابة الروائية الفرنكوفونية في المحافظة على الهوية؟

وإثر هذه التساؤلات انقسم النقاد إلى ثلاث أقسام، منهم من رأى أنه أدب قومي ومنهم من رأى أنه أدب فرنسي خاص بينما ذهب فريق ثالث لإعتباره أدبا بلا هوية.

3. شخصيات الرواية:

1.3 عامر:

أو عميروش أو ولد الرومية كما يلقبه سكان قرى تيزي وزو فهو ابن من أب جزائري وأم فرنسية عانى في طفولته من التمييز الذي كان يتلقاه من الآخر الفرنسي ومن سكان قرية إيغيل مزيان ولم يفارقه هذا الوصف حيث كان ناقما على الفرنسيين وعلى أبناء عمومته وشعوره بالغربة بينهم ما اضطره للهجرة إلى فرنسا، ولكنه لم يلبث طويلا حتى عاد إلى مسقط رأسه ويقابل ذهبية الفتاة التي أحبها، ولكن وفاة أمه جعلته يعاني الأمرين وينتهي به المطاف بقتل نفسه.

2.3 ذهبية:

الفتاة النصرانية التي وجدت نفسها تعيش في قرية كل ساكنيها مسلمين عاشت ظروفا صعبة بسبب فقرها واختلافها دينيا مع السكان المحليين وقعت في حب عامر وتمنت الزواج به.

3.3 ننه مالحة:

زوجها أهلها برجل مرتد عن الإسلام تغطية لفضيحة شرف فأنجبت ذهبية ولكن الظروف اضطرتها للعودة من قرية ايت واضو إلى مسقط رأسها ايغيل مزيان.

4.3 المدام:

امرأة نصرانية من أصول فرنسية تزوجت برجل جزائري وأنجبت عامر آيت العربي وعادت به إلى مسقط رأسه وأسلمت، كانت تلقى معاملة خاصة من أهل القرية رغم اختلافها عنهم عرقيا ودينيا.

5.3 مقران:

من عائلة عميلة للمستعمر الفرنسي كان يرى في ذهبية فريسة لاختلافها الديني معهم ما جعله يغتصبها ويفقدها شرفها نكاية في عامر.

4. الهوية الدينية والصراع الإيديولوجي:

يعتبر الدين ركنا مهما تقوم عليه الهوية، وذلك بوصفه شعورا وجدانيا يتضمن جميع المبادىء والمعتقدات والطقوس الدينية الخاصة بمجتمع ما، كما أنه ينظم حياة الإنسان بمختلف جوانبها، لهذا يعد من ركائز البناء الإجتماعي ويمكن أن نعطي للدين تعريفا من وجهة نظر اجتماعية بأنه: "ظاهرة اجتماعية في جانبها الموضوعي يتضمن العادات والتقاليد والروايات المأثورة والمعتقدات والمبادئ التي تدين بها أمة أو شعب أو مجتمع ما." (توفيق، 1981، صفحة 45).

كماأن الدين يؤدي دورا مهما في تحديد هوية الإنتماء بين الأفراد والجماعة الخاضعة لتمثيل المنهج نفسه الصادر عن عقيدة ريانية فالدين يعزز جملة من القونين في مسائل الهوية والإنتماء، وذلك نتيجة التأثر بالمجتمع أو طائفة معينة، تستمد أيديولوجيتها من كثرة الأفراد المنتمين إاليها أو المنتسبين لهوية ما، ونجد أيضا أن الدين يحقق وحدة الأفراد، فسيكون للدين أهمية في بناء الهوية وعلى هذا الأساس نجد أن:"أهم عناصر الهوية الدين، إذ تذوب في الحروب الهويات المتعددة العناصر وتصبح الهوية الأكثر معنى بالنسبة للصراع هي السائدة وغالبا ما تتحدد هذه الهوية دائما بالدين" (ثائر، 2009، صفحة 259).

1.4 الهوية الدينية بين الأنا والآخر:

ناقشت الرواية السياسة الفرنسية الممارسة في الجزائر بما فيها التبشير النصراني الذي سعى إلى فرض الدين المسيحي على الجزائريين ويتضح ذلك جليا في الفصل الأول من الرواية في مشهد صلوات ذهبية "وصارت تردد بصورة آلية صلاتها تلك التي تعلمتها من الأب دوبو الذي تحدث الأمازيغية بطلاقة، وقد ترجم الأب دوبو أقوال المسيح لكي يحفظها التلامذة في قرية آيت واضو...." يتضح هنا جليا هنا أن التنصير ليس مجرد حالة شاذة تمثلت في بطلة الرواية ذهبية بل هو سياسة عامة تبنتها السلطات

الفرنسية، لأنها تدرك أن تنصير الآخر ومحو عقيدته الإسلامية كفيل بأن يجعله تابعا فإذا سهل عليه محو عقيدته فإن مادون ذلك أسهل من لغة وعادات وتقاليد، وعلى ذكر قرية آيت واضو فهذه القرية تمثل طائفة المرتدين عن الإسلام من السكان المحليين، ففرنسا تخصهم بالرعاية والمزايا مقارنة بأهالي القرى المسلمين وكأن فرنسا تريد أن تبعث برسالة إلى باقي السكان المسلمين أن ارتدوا عن دينكم وستنالون مانال سكان آيت واضو ورغم أن إيمان القرى المرتدة هذه لا يعتبر إيمانا حقيقيا لأنه كان بدافع المصالح المادية التي وعدهم بها المستعمر والتي تمثلت في الوظائف والمناصب التي يحصلون عليها "وذهبية لا تحب المسيحيين من أهل قريتها، لأنهم في نظرها ليسوا مخلصين في اعتقادهم، فالكثير منهم اعتنق المسيحية لغرض في أنفسهم، بل المصالح المادية هي التي دفعت بهم جميعا في البداية لاعتناق المسيحية ..."، ورغم ذلك إلا أن هذا يبرز مدى حرص الفرنسيين على محو هوية الآخر ولو كان عن غيراقتناع فيكفيهم أن تتنازل عن هذا العنصر"الدين" الذي لطالما شكل عقبة في السياسة الفرنسسية في مستعمراتها.

لم يكتف المسيحيون من قرية آيت واضو بالردة عن الإسلام والتنصر بل كانوا يزايدون على أهالي القرى الأخرى من المسلمين بما يفعله الأباء البيض والراهبات، وهذا شكل دعوة مباشرة للتنصر حيث يقولون"أنظروا إلى الراهبات والآباء البيض، وما يقومون به من أعمال البر والإحسان، ثم قارنوا بينهم وبين الشرفاء والمرابطين الذين تدينون لهم بالولاء وتذكروا عاداتهم الشنيعة في كتابة الحروز ومالهم من صفات قبيحة...كونوا واقعيين وافتحوا أعينكم لكي تروا الأمور على حقيقتها " (مولود، 1990، صفحة 26).

أشارت الرواية إلى حدوث تقارب بين الأنا والآخر المختلف دينيا وذلك بحدوث زيجات بين النصارى والمسلمين إلا أن الناتج عن مثل هذه الزيجات يكون ذاتا متأزمة فلا يقبله أي طرف، لا المسلمون ولا النصارى "والواقع أنه قد يتزوج المسيحي من مسلمة، أو المسلم من مسيحية، وإذا حصل ذلك فإن الأسر التي تنشأ عن مثل هذه الزيجات هي بدورها شاذة، فلا هي بالمسلمة ولا هي بالمسيحية..." (مولود، 1990، صفحة 26)يتضح ذلك في معاناة ذهبية وعميروش لأنهما يشتركان في هذه الأزمة الهوياتية، فوالدة عامر نصرانية فرنسية "المدام" وذهبية أمها مسلمة "مالحة" وأبوها نصراني من قرية آيت واضو.

2.4 الأنا والتصور الإسلامي للآخر:

إن الإنقسام الحاصل في النسيج المحلي وافتراق قرى تيزي وزو بين النصرانية والإسلام جعل الأنا المسلم أكثر تمسكا بدينه في ظل استيعاب المكون الأمازيغي لمختلف الثقافات المتفاعلة والمشكلة له

وشكل حالة من التعالي بين الطرفين كل يرى الآخر نظرة دونية، ويبرز التمسك بالدين في الممارسات اليومية للأنا المسلم فهاهي جنازة "المدام" والدة عامر وما حملتها من طابع إسلامي بداية من الغسل والكفن وحمل النعش من شباب القرية إلى تلاوة الشيوخ لآيات من الذكر على قبرها ومواساة أصدقاء عميروش له وهو ما يعرف في الشرع بالتعزية، والمواساة والإستبشار بحسن خاتمة"المدام" لأنها ماتت على دين الإسلام، "أمك يا ولدي، قد فارقتك قريرة العين وستبارك عملك في دار الآخرة ..."، "وأضافوا غير قليل من عبارات المدح والثناء على المرحومة أمي" (مولود، 1990، صفحة 137)

وفي مشهد آخر يستقيظ فيه عميروش على صوت عجوز تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى سكان القرية وهم متوجهون لأداء فريضة صلاة الفجر، " وأسمع صوت أمه المرتعش وهي تصلي وتسلم على سيدنا محمد... وأخيرا ستنفتح أبواب وتغلق أخرى وينهض الجيران إنهم يحثون الخطى لأداء صلاة الفجر..." (مولود، 1990، صفحة 46) ، إن هذا المشهد على اعتياده وبساطته إلا أنه يبرز مدى تمسك الأنا بدينه ولا أدل على ذلك من الصلاة النبي والمواظبة على الصلوات المفروضة في وقتها.

3.4 الأنا المتعالي ونظرته للآخر:

الأنا المتعالية هي التي تتميز بأنها دائما ما تدخل في صراع دائم مع الآخر، من أجل إثبات ذاتها، فهي تحس دائما أنها تتمتع بالقوة والقدرة، ما يجعلها تفرض سيطرتها على الآخر، فالأنا متعالية مع قناعتها المتمركزة على ذاتها وإرغام الآخر على الإعتراف بها.

1.3.4 شخصية مقران:

شكلت شخصية مقران في الرواية الأنا المتعالية على الآخر حيث يتجلى ذلك في موقفه من ذهبية الفتاة النصرانية التي تسكن بقربه وتربطهما أواشج القرابة باعتبار كلاهما من أصول أمازيغية، فلم تشفع لها قرابتها ولا جيرتها له من أن ينظر إليها نظرة خبيثة ويفكر في انتهاك شرفها لا حبا فيها إنما من باب الإمعان في الإحتقار، فشخصية مقران ترى أن كل ما هو مختلف عدو حتى لوكان قريبا " لا يكاد يقابل مقران ذهبية حتى يلتهمها بنظراته ويكشف عنها ستار الحشمة ...ويبدو من سلوكه أنه يريد أن يعاكسها وأن يعبر لها عن ترفعه عنها وميله لها في نفس الوقت ...وهو لا يدري مبعث تلك الرغبة أهي نتيجة للإحتقار الصريح الذي يظهره لتلك الفتاة النصرانية؟" (مولود، 1990، صفحة 71). على هذا فمقران لا يكتفي بمعاكسة ذهبية تلك المعاكسة لا تخلو من الإحتقار بل يراوده فكرة أن انتهاك شرفها عمل سيجازيه الله عليه لأنها كافرة" إن هذه الفتاة النصرانية التي تسحره بجمالها وتزعزع إيمانه كمسلم لا تستحق منه إلا انتهاك العرض دونما شفقة وهو على أتم الإستعداد للقيام بهذا العمل، ولربما سينال على عمله أجرا وثوابا." (مولود، 1990، صفحة 71).

4.4 الذات المتأزمة في الرواية:

مثلت شخصية عامر الذات المتأزمة هوياتيا فهذا الشاب المتعلم المدافع عن قضية بلده لم تشفع له خؤولته باعتبار والدته ذات أصول فرنسية، حيث كان مثالا لمعاناة الشباب الجزائريين في دار الغربة فرنسا وسوء معاملة الفرنسيين لهم ففي الوقت الذي وضعت فيه سلطات الإحتلال يدها على خيرات وممتلكات الجزائريين كان أهل البلد الحقيقيين يعانون الأمرين فلم يتبقى لهم شيء فقرروا الهجرة لفرنسا من أجل كسب لقمة العيش ومن هؤلاء المهاجرين "عامر" ورغم جنسية أم عامر الفرنسية كانت كفيلة بتحسين معاملة الفرنسيين له مقارنة بباقي الجزائريين، إلا أن ذلك لم يحصل حيث كان وجود عامر مرفوضا قائلين له "عد إلى بلادك يا بيكو...عد إلى بلادك يا ابن العرب" (مولود، 1990، صفحة 161)، على هذا كانت إجابة عامر لهم مفحمة في حيث قال لهم "حسنا سأعود، ولكن ألن ترحل أنت الآخر عن بلادي" (مولود، 1990، صفحة 161).

أن يلقى عامر هذه المعاملة من الآخر الفرنسي فهذا متوقع حدوثه نظرا لعنصريتهم ومقتهم لكل الجزائريين، ولكن أن يقع ضحية الصراع الطبقي بين الجزائريين أنفسهم فهذا شكل أزمة كبيرة لعامر فلا الآخر يقبله ولا من يعتبرهم أبناء وطنه يقبلونه، وقد كان في ثنايا هذا الصراع صراع أسري اخر بين أسرة "آيت العربي" التي منها عامر وأسرة "آيت سليمان" المساندة للاحتلال الفرنسي، كل هذه المعطيات أفرزت شخصية ضائعة امتدت إرهاصاتها بداية من طفولة عامر وما كان يلقاه من تمييز عنصري من شباب أهل القرية وشيوخها بل وحتى أطفالها فقد كانت شجارات الطفولة تطفح بالتمييز " وكثيرا ما رجعت إلى الدار ممزق العباءة مصابا بخدش أو جرح خطير، فما أنا في نظرهم إلا ولد الرومية، فليكن إذا كبش الفداء" (مولود، 1990، صفحة 152).

شكلت السنوات الأولى في حياة عامر بداية تكوينه فقد جعلت منه شخصا مهابا، لا يستطيع أحد من أهل القرية أن يواجهه بما يختلج في صدره من تمييزعنصري، فلم يكن لهم إلا الصبر على رؤية ابن الرومية يعيش بينهم، فمنتهى ما كان يصدر منهم هو الدعاء عليه أن يبقيه الله في فرنسا عند أخواله حيث ينتمي، حيث يقول "سأبقى هنا لكي أكون غصة في حلوقهم، ولعلهم يقولون في أنفسهم كلما أبصروني بينهم: مالنا إلا الصبر، وقد كانوا مسرورين جدا حينما ذهبت لفرنسا: استرحنا من ولد الرومية.. الله يبقيه في بلاد الكفار، عند أخواله" (مولود، 1990، صفحة 154).

وفي مشهد عنصري آخر من الأنا الجزائري نجد شخصة مقران التي تتربص بعامر فلم تسلم حتى والدة الأخير في جنازتها من العنصرية، فهاهو مقران واقف في المقبرة يؤلب المشيعين على "المدام" " وإذا بي

أقع على مقران وهو يتشدق أمام الناس ويعطيهم دروسا في الأخلاق ...كان يتكلم عني وعن أمي ويقول بأن صلاة الجنازة لا تصح على أمي لأنها رومية" (مولود، 1990، صفحة 167)

كل هذه العنصرية التي تعرضت لها شخصية عامر من الأنا الجزائري والآخر الفرنسي كانت كفيلة بخلق شخصية عدائية لا تنفك أن تختلق المشاكل كمحاولة لزعزعة الإستقرار في هذا النسيج الإجتماعي المحافظ والمنغلق الرافض للآخر تماما، ففي صورة من ممارسات نجد أنه صار يفطر في شهر رمضان كمحاولة لإستفزاز أهل قرية إيغيل مزيان، رغم أن عامر في غيرما مشهد كان مثالا للشاب الملتزم بدينه ولم يكن واردا في قناعاته مثل هذه التصرفات، "أتذكر أنني في إحدى السنوات الماضية لم أؤد فريضة الصيام تحديا لهم، غير أنهم لم يقيموا لذلك أي اعتبار" (مولود، 1990، صفحة 157)، لم يكتف أهل القرية بعدم المبالاة بل أمعنوا في إبعاد مقران من حيز الأنا قائلين في أنفسهم :ومتى كان أبناء الكفار يصومون؟ ولو أنه صام ما كان صيامه ليقبل، إن شهر رمضان ما فرض إلا علينا" (مولود، 1990، صفحة 157).

5.4 الأنا الفرنسي وفكرة الصدام مع الأنا:

إن رواية الدروب الوعرة باعتبارها عملا اجتماعيا يتناول الصدامات الثقافية والمجتمعية داخل إطار ضيق متمثل في المجتمع القبائلي المحلي، لم يأت على ذكر العلاقة بين الأنا الجزائري والآخر الفرنسي المختلف تماما إلا في مواضع معدودة، لكنها كانت كفيلة بتوضيح الفكرة النمطية السائدة التي طالما تمسك بها الآخر الفرنسي، وهي فكرة التعالي والصدام والإحتقار، فهاهم الشباب الجزائريون المقيمون بفرنسا لا ينفكون أن يتعرضوا لشتى أنواع المضايقات"... أينما استقر بنا المقام في فرنسا فنحن دائما أشقياء ومعذبون في الأرض" (مولود، 1990، صفحة 158).."فمن الناس من ينظر إلينا شزرا وما أكثرهم، ونظرتهم تلك لا تخفى علينا" (مولود، 1990، صفحة 159)أو أن يقول قائل منهم "عد إلى بلادك يا بيكو، عندئذ أدركت أن لي وطنا وسأعتبر دائما أجنبيا في غيره من الأوطان" (مولود، 1990، صفحة 161) ، هذه كانت نظرة الآخر للأنا مليئة بالحقد والعنصرية،لم يعترف فيها الفرنسيون بأحقية الجزائريين في وطنهم بل اعتبروهم دخلاء لا حق لهم في وطنهم الأم وغير مرحب بهم أيضا في فرنسا.

5. خاتمة:

قدمت رواية الدروب الوعرة صورة واضحة عن تلك التي تدعيها فرنسا، والتي حاولت فيها ترسيخ فكرة أن الجزائر فرنسية، حيث أبانت للقارئ مجتمعا اخرا تحظى فيه العادات والتقاليد وفكرة الإرتباط بالأرض والدين أهمية بالغة في الحفاظ على هوية الذات تصل فيه إلى درجة التقديس، ما انجر عنه رفض الآخر تماما حتى ولو كان الإختلاف معه في جزئية بسيطة، ما يجعلنا نفترض أن الهوية تنجلي في هذا العمل الروائي من خلال الممارسات اليومية وتكريس كل أشكال التراث الأمازيغي من لهجة وأمثال شعبية، ما يعكس رغبة مولود فرعون في تخليد كل أبعاد الهوية الثقافية، بالرغم من تزمت الأنا أو بعبارة أخرى محافظته، إلا أن هذا الأمر كان سببا أو مقدمة لتبلور فكرة الهوية، ورغم هاته الضبابية التي تكتسي موضوع الهوية وتأزمها في هذه الرواية إلا أنه يلوح بريق من الأمل في تغيير السيكولوجيات الضرورية من أجل إتاحة الفرصة لحدوث التغييرات الثقافية والإجتماعية المرغوبة، رغم أن المدى الزمني اللازم لمثل هاته التغيرات سيستغرق أجيالا طويلة في الغالب، ولأن صراع الهوية اليوم تجاوز الأطر الضيقة ليتحول لصراع عالمي بين قوى غير متوازنة، فإنه واجب إعادة طرح الهوية كسؤال بحث وشك واستقصاء، وهذا الأمر يحتاج إلى الإنفتاح لا التقوقع والإنغلاق.

قائمة المراجع

ابن منظور. (1990). *لسان العرب، مادة (ه و ى)* (المجلد ط1). بيروت، لبنان: دار صادر للطباعة والنشر.

أديب عايدة. (1982). *تطور الأدب القصصي 1925/1967*. (محمد صقر، المترجمون) ديوان المطبوعات الجامعية.

الأعرج واسيني. (1979). *فيصل الواقعية في الرواية السردية*. دمشق، سوريا: دار البحث الجديدة.

الأعرج واسيني. (1986). *إتجاهات الرواية الجزائرية*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

الجرجاني الشريف. (1998). *التعريفات* (المجلد ط1). بيروت: دار الكتاب العربي.

الذويخ فهد. (2009). *صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى العصر العباسي* (المجلد ط1). إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث.

السمالوطي محمد توفيق. (1981). *الدين والبناء العائلي، دراسة في علم الإجتماع العائلي* (المجلد ط1). جدة، السعودية: دار الشرق.

بزيان سعدي. (2005). *جرائم فرنسا في الجزائر (من الجنرال بيجو إلى الجنرال أوساريس)*. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

بوشموخة عمر. (28 03, 2011). تاريخ الاسترداد 08, 2022، من جزايرس: https://www.djazairess.com/djazairnews/27841

جمال شحيد ، و وليد قصاب. (2005). *خطاب الحداثة في الأدب* (المجلد ط1). سوريا: دار الفكر.

عباس إبراهيم. (2005). *الرواية المغاربية، تشكل النص السردي في ضوء البعد الإديولوجي* (المجلد ط1). الجزائر: دار الرائد للكتاب.

فرعون مولود. (1990). *الدروب الوعرة* (المجلد ط5). (حنفي بن عيسى، المترجمون) الجزائر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

كاظم رحيم ثائر. (2009). العولمة والهوية والمواطنة. *مجلة القادسية للآداب والعلوم التربوية، 8*(1)، صفحة 259.

ميكشيللي إليكس. (1993). *الهوية* (المجلد ط1). (علي وطفة، المترجمون) سوريا: دار الرسيم للخدمات الطباعية.

هنتغتون صموئيل. (2005). *التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية* (المجلد ط1). (حسام الدين خضور، المترجمون) دمشق، سوريا: دار الرأي للنشر.